وفي السنة الرابعة من عمره أصيب بالجدري الذي ذهب بعينه اليسرى، ثم لم تلبث عينه اليمنى أن غشيت بالبياض وفقدت البقية الضئيلة من قوة الإبصار، وألبس ثوباً أحمر أثناء مرضه، فكان اللون الأحمر آخر مارسخ في ذاكرته القوية من ألوان.

أخذ العلم أول ما أخذه عن أبيه، ثم ارتحل إلى -حلب- التي كانت إحدى الحواضر الكبرى آنذاك، وهي تعج بكبار العلماء والأدباء اللغويين والشعراء الذين تحلقوا في بلاط الأمير الحمداني العظيم -سيف الدولة- الذي قال عنه الرواة إنه لم يجتمع بباب الخلفاء بعد -الرشيد- مثل من اجتمع بباب سيف الدولة من العلماء والأدباء ويكفي ذلك البلاط فخراً أنه أنجب للعربية شاعرها الفحل - أبا الطيب المتنبي- مالئ الدنيا وشاغل الناس.

ثم ارتحل عن -حلب- إلى إنطاكية- ثم إلى طرابلس الشام-مراً- باللاذقية- حيث نزل بدير على أحد الرهبان الذين درسوا الفلسفة، وفيها أنشده بعض الأبيات التي رواها ياقوت الحموي والتي تظهر شيئاً من الحيرة والتردد.

ومن -طرابلس الشام - عاد إلى مسقط رأسه في -المعرة- وأقام فيه زمناً ثم ارتحل إلى بغداد - حاضرة الخلافة العباسية آنذاك، والتي كانت تغص بالمجامع الأدبية والفلسفية، ومجالس المناظرة في الفقه والكلام.

وفي -بغداد- علا صيته وبهر البغداديين منه علم غزير وشعر رفيع وفضل جم. وبالرغم من كل ما لاقاه من ترحيب في -بغداد- فإن الحياة لم تطب له فيها، سيما بعد أن اصطدم بالشريف المرتضى في قصة مشهورة. فعاد إلى المعرة-متذرعاً بمرض أمه والفقر الذي لحقه في -بغداد- وارتحل عن بغداد لست بقين من رمضان سنة 400هـ حزيناً على فراقها، ولم يستمع لأهل - بغداد- الذين ألحوا في استبقائه وبذلوا له المال ومنوه الاماني ورغبوه في ألوان النعمة.

وفي طريقه من -بغداد- بلغه نعي أمه التي أحبها والتي تجشم المصاعب في لقياها، فحزن أشد الحزن وأرسل رسالته المشهورة لأهل المعرة، يطلب فيها منهم عدم استقباله ودخل بيته في المعرة حزيناً كئيباً وحيداً، واعتزل الناس، وعاش على طريقة الفلاسفة والزهاد والمتقشفين.